الخير والأبد، بعدما جرفت، الى النسيان، قوافل الغزاة الذين استطاعوا، الى حين، في غفلة من الزمن ومن انقسام المقاتلين، ان يلطخوا وجه دجلة بالسواد العابر.

فها هي بغداد، عاصمة الثقافة العربية الشامخة، تصل ما انقطع من شعاعها، وتبني الحاضر العربي الجديد، وسط الزلازل الدولية، والاقليمية، على ثبات الهوية القومية، والثقافية، المعبّرة عن روح الأمة، وعن طاقاتها المادية والبشرية غير المحدودة؛ انها القلعة التي ترسم عليها شكل الغد العربي، الذي سيتلاءم مع مؤهلاتنا الحضارية، والثقافية، والمادية، ومع ما تتطلبه مكانتنا من ضرورة الانسجام مع امكاناتنا. لقد آن لنا ان نسأل بلهفة والحاح عن اسباب التوتر، الذي لم يعد له من مبرّر، بين الامكانية والمكانة، والتواجد والوجود، كي لا يبقى مشهدنا العربي على خارطة العالم على ما هو عليه من تشتّت وتنافر وتناحر، وكي لا تبقى اجزاء من الجسد العربي الواحد فريسة المطامع والاستهتار والانكار، وكي لا تبقى الصورة الايجابية الوحيدة عنا هي اننا كنّا هناك؛ كنا في الماضي؛ كنا في زمن كان على خارطة الزمان.

ان التاريخ لا ينتظر احداً، ولا شعباً، على أية محطة، او ذكرى. ونحن لا نستمدّ شرعيتنا الانسانية، ولا مكانتنا الحضارية، ولا جدارتنا بالدور الفعّال، والتعامل الايجابي مع ايقاع العصر الحديث، بالتأمل في كتاب الماضي وحده؛ بل نستمدها من قوة هذا الحاضر، من وعي الذات، وما في الذات والارض من طاقات وثروات؛ من هذا الانسان العربي الذي لم يتوقف، يوماً واحداً، عن الامساك بجمرة الايمان العميق، بوحدة اللغة والثقافة والتاريخ والمصلحة والمصير، من طنجة الى عدن، ومن عطش شهدائنا الابرار، الذين ينادون الله والارض بالكلمات ذاتها، وبالرسالة، ويستشهدون من اجل المثل ذاتها، والحرية ذاتها، ومن مخزون هذه الارض العربية الواسعة، القابضة على خاصرتي المحيطيْن.

ومن هنا، فاننا، في مواجهة الخطر المصيري، الذي يتعرض له امننّا القومي العربي، معاً وعلى انفراد، في حاجة، ملحّة الى تحسّس ما في الجسد والارض والروح من اسلحة الدفاع المشترك عن النفس، وعن المكانة التي نستحقّها، نحن العرب، نحن العرب مجتمعين، على خارطة الزمن العربي الجديد، وخارطة العالم الجديد. «وكنتم خير أمة أُخرجت للناس».

ان الوضع الدولي الذي يعاد تنظيمه، وترتيبه، في مناخ من محاولات الاستقطاب الجديد، لا ينبغي ان يدفعنا الى الاحساس بالعجز والخمول تجاه ما يعدّه لنا الآخرون من مصير؛ ولكنه يحفز فينا كل التحديات، وكل متطلبات العمل السريع والموحّد، من أجل صوغ الشروط الملائمة للحضور العربي الجماعي في حسابات القوى، التي يشعر بعضها، انطلاقاً من غطرسة القوة التي يمتلكها، بأنه قد امتلك، وبلا منافسة أو شراكة، ناصية الهيمنة على المصير الدولي برمّته.

صحيح ان ثمّة خللاً قد حدث في معادلة التوازن الدولي؛ ولكن السياق العام الذي تجرى فيه التطورات العالمية، ليأخذ فيه التوازن الراهن صورته المستقبلية، لا يغلق امام العامل الاقليمي فرصة التعبير عن حركته الحرة.

«يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الّا ان يتمّ نوره، ولو كره الكافرون». صدق الله العظيم.

واذا كان اعداء الأمة العربية يسابقون الساعات لتوظيف المتغيّرات العالمية لحساب هيمنتهم، ولانعاش فكرتهم التوسّعية العدوانية، بعدما استطاعوا ان يستمدّوا من شروط الصراع، في مرحلة الحربين، الاولى والثانية، ومرحلة الحرب الباردة، دوراً استثنائياً، شكّل فيه المشروع الصهيوني رأس حربة متقدمة في الجسد العربي، فان هذا الدور مرشّح لأن يفقد حيويته التقليدية، اذا استطاع العمل العربي المشترك ان يعيد صياغة العلاقات العربية، على المستوى الدولي وعلى المستوى الاقليمي، على اساس حساب المصالح المتبادلة، وعلى اساس توظيف الامكانات الجبارة التي نمتلكها، والعلاقات الاقتصادية المتنامية، في خدمة مصالحنا السياسية واحترام حقوقنا القومية، والتوصل الى حل قضية الشعب العربي الفلسطيني، فتنتهي بذلك حلقة من حلقات التناقض الفاضح بين امكانات العرب الذاتية وبين مكانتهم العالمية.

اننا ندرك ان التحديات التي تواجهنا، اليوم، ليست كلّها ناشئة فقط من الفوضى التي تسم صورة العالم الآن، قبل رسوها على حدودها الاخيرة. ولكن بعض القوى الدولية الاساسية يقوى بنا علينا، ويدرج امكاناتنا القوية في حساب هيمنته، دون ان يراعي الحدّ الادنى لمصالحنا.

«أمن قلّة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال لا، ولكنكم كثير كغثاء السيل».